بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة طه

هي سورة مكية، تبدأ بالخطاب الإلٰهي مع النبي ﷺ، وتنتهي كذلك بالخطاب الإلٰهي مع النبي ﷺ. وتهدف إلىٰ ما يهدف إليه القرآن المكي من: ترسيخ قواعد الإيمان، وبيان أصول هذا الدين، من خلال ما تعرض له السورة من قصص ومشاهد. وتبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿۞ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾

﴿طه﴾ من الحروف المقطعة، التي لفت الله بها أنظار العرب ليسمعوا القرآن؛ فتلزمهم الحجة، وقيل: إنها اسم لمحمد ﷺ، وقيل غير ذلك. وقال بعض الكفار للنبي ﷺ: إنك لتشقىٰ، حيث تركت دين آبائك إلىٰ ما أنت فيه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ بل لتسعد، ولذلك مَن يعمل بالقرآن يسعد. ثم بين الله بعض الفوائد من إنزاله، قائلًا ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ به ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ ربه.

وبعد ذلك، بيّن المولىٰ مصدر القرآن في قوله عز وجل:

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾

أي: نزل القرآن ﴿تَنزِيلًا﴾ من الذي ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ ومَن عليها، وما عليها وخلق كذلك ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ أي: العليا، وإذا كان القرآن من هذا الإلٰه: فكيف ينزله عليك لتشقىٰ؟ أبدًا والله، بل لتسعد، ويسعد كذلك كل مَن يعمل به.

ثم بين ربنا عز وجل.. هذا الذي ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾. بقوله:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

يعني: هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي خلق الأرض والسموات العلىٰ، وهو الذي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ استواءً ليس كمثله شيء، من غير تكييف، ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل. والذي ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ملكًا وتصرفًا، كذلك ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ وهو القشرة الأرضية، من كنوز وثروات خبأها الله تحت تراب أرض كل بلد، تكفيهم، بل تسعدهم ـ لو استخرجوها ـ إلىٰ آخر الزمان.

﴿و﴾ الذي ﴿إِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ في ذكر أو دعاء فهو غني عنه؛ حيث إنه ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ منه، وهو ما حدثتَ به نفسك، أو خطر ببالك. وهو: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التسعة والتسعون، التي وردت في الأحاديث النبوية.

هذا هو الذي أنزل عليك القرآن، هل يُعقل أن ينزله عليك لتشقىٰ؟ أبدًا.. أبدًا.

عظَّم الله القرآن الذي أنزله، وعظم مَن أنزله عليه، وهو محمد ﷺ، وبين لماذا أنزله؟ وأن ذلك كان للإنذار والتبشير، والدعوة إلىٰ التوحيد؛ ثمّ أتبع ذلك بذكر قصة موسىٰ عليه السلام؛ تقوية لقلب النبي ﷺ، وبيانًا لوحدة الرسل والرسالات؛ ولاحِظوا أن القصة تستغرق سورة كاملة. وهي تبدأ بقوله سبحانه:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾

وما حديث موسىٰ عليه السلام.. ؟

﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

يعني: وقت أن ﴿رَءَا نَارًا﴾ وهو في الطريق عائدًا من مدين إلىٰ مصر ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ امرأته ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾ في مكانكم حتىٰ آتيكم؛ حيث ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ أبصرت

﴿نَارًا﴾ موقدة على بعد، وسأذهب إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ شعلة نستدفئ بها من البرد ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى﴾ ضوء ﴿ٱلنَّارِ هُدًى﴾ هداية للطريق، الذي تُهْنَا فيه، وغابت عنا معالمه.

ووافق أهله، وذهب موسىٰ إلىٰ حيث النار..

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾

وهكذا، عند النار، عرف موسىٰ أنه في الوادي المقدس، وأنه في حضرة ربه سبحانه، وأنه تم اختياره للرسالة، وعليه أن يستمع جيدًا لمضمونها فيما يوحىٰ إليه، وعليه أن يكون متواضعًا.

فماذا أوحىٰ الله إليه؟ قال تعالىٰ:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

وفي هذا الذي أوحي إليه، كما هو واضح، كان التركيز علىٰ ثلاثة أمور:

الأمر الأول: التوحيد ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ وهو أول واجب علىٰ كل مكلف، ولا قبول لأي شيء بدونه.

الأمر الثاني: العبادة ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ علىٰ كل حال، وفي جميع الصور، وأهم شيء في العبادة، وأبرز شيء فيها الصلاة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

الأمر الثالث: الإيمان باليوم الآخر ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ليعمل الجميع كلٌّ بما يجب، و ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ فيه.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ إيمانًا واستعدادًا ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فتتأثر به، ولا تؤمن بها وتتبع هواك مثله ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ تهلك.

وبعد أن بيّن رب العزة لموسىٰ عليه السلام أصول الدعوة، كشف له عز وجل عن قدرته سبحانه، إذ قال له، وهو العالم بكل شيء:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾

فأجاب موسىٰ:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

هذا ما يعرفه موسىٰ عن عصاه، ولكن ما يعرفه الخالق أكثر وأكثر وأكثر، ولذلك:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

أي: ﴿أَلْقِهَا﴾ من يدك علىٰ الأرض.

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

نعم، لقد استجاب موسىٰ لربه ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ من يده على الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ فجأة، وفي الحال، تحولت بقدرة الله تعالى ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ثعبانًا يتحرك ويتلوىٰ.

وبما أن موسىٰ بشرٌ، أحسّ بالخوف، فـ:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿خُذْهَا﴾ بيدك ﴿وَلَا تَخَفْ ۖ﴾ منها؛ حيث إننا ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ مرة أخرى ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ إلىٰ ما كانت عليه، وهذه آية منا وعلامة علىٰ نبوتك.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ﴾ اليمنىٰ ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ تحت إبطك الأيسر، وأخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ اللون ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أو أذى من مرض أو خلافه، ولكن نورها كنور الشمس، ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ منا، علامة علىٰ نبوتك. هذا، وقد أمرناك بإلقاء العصا وأخذها، وضم يدك وإخراجها ﴿لِنُرِيَكَ﴾ بعضًا ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ الدالة علىٰ قدرتنا، والدالة علىٰ نبوتك، وإرسالنا لك.

وبعد أن حدّث رب العزة موسىٰ عليه السلام عن ذاته العلية، وبين له أصول الدعوة الإلٰهية، وكشف له عن قدرته، يأمره تبارك وتعالىٰ بتبليغ رسالته، حيث يقول له:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

هذه هي المهمة، نعم، هذه هي الرسالة التي يُدرِّبه الله تعالىٰ علىٰ استعمال العصا واليد، ويريه الآيات الكبرىٰ ومن أجلها: الذهاب إلىٰ فرعون الطاغية. إنها لمهمة شاقة، إذًا فليتزود لها بالدعاء، ومعونة من الله، وبعض الطلبات:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

لقد طلب من ربه أمراً عظيمًا !! طلب: شرح الصدر، وتيسير الأمر، وطلاقة اللسان، ووزارة الأخ، وشد الأزر، والشراكة في الأمر، والتوفيق في التسبيح والذكر، ثم أعلن العجز وفوض الأمر لله ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾.

واستجاب الله دعاءه، وحقق له طلباته.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

ولأن الله يعلم أن موسىٰ يهاب الموقف، ويستعد له غاية الاستعداد، أراد أن يؤنسه، وأن يشعره برعايته له سابقًا، إذ قال له:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾

أي: كما أنعمنا ﴿عَلَيْكَ﴾ الآن بتحقيق طلباتك، وإجابة سؤالاتك، أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ سابقة علىٰ هذه.

وكأن سؤالًا طُرح: متىٰ كان ذلك ؟ فكان الجواب:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾

يعني: وقت أن ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ إلهامًا، أو منامًا ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ حين ولدتك وكان فرعون يُقتِّل أمثالك ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ في أمرك وبخصوصك.

وكأن سؤالًا طُرح: بماذا أوحيت يا رب إلىٰ أمي؟ فكان الجواب:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾

يعني: أوحينا إليها بأمرين، وخبرين:

الأمر الأول: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ أي: ضعي موسىٰ في الصندوق.

الأمر الثاني: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: ضعي التابوت في البحر.

والخبر الأول: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أي: فسوف يلقيه البحر إلىٰ الشاطئ بقدرتنا.

والخبر الثاني: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ وهو فرعون، ويكون تحت رعايتنا.

وفعلت ذلك. ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ فلا يراك أحد إلَّا وأحبك. ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ أي: تتربىٰ في بيت عدوي وعدوك ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ علامة علىٰ رعايتي لك.

وأخذوك إلىٰ بيت فرعون، وأنعمنا عليك مرة أخرىٰ، حيث حرّمنا عليك المراضع.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

وهكذا، أعدناك بقدرتنا وعنايتنا إلىٰ أمك ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ عليك. بموافقة من فرعون، وخوف من عدوك عليك ﴿و﴾ أنعمنا عليك كذلك مرة أخرىٰ، حيث ﴿قَتَلْتَ نَفْسًا﴾ خطأً، وحزنت وتبت ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ الذي أصابك بسبب ذلك، ﴿و﴾ أنعمنا عليك كذلك مرة أخرىٰ، حيث ﴿فَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ ابتليناك ابتلاءات كثيرة وخلصناك منها، حتىٰ وصلت إلىٰ مدين ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ هناك ﴿فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ أخيرًا ﴿جِئْتَ﴾ في الوقت المناسب ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: في علمي ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ لتحمل الرسالة، وتبلغ الدعوة.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾

وهكذا، ومن مراجعة هذه الإنعامات، ترىٰ أني ﴿ٱصْطَنَعْتُكَ﴾ اخترتك ﴿لِنَفْسِى﴾ نبيًّا، ولدعوتي مبلغًا وناشرًا.

وبعد أن أجاب الله موسىٰ فيما طلب، آنسه بتعداد النعم الإلٰهية عليه، وأشعره بالرعاية الربانية له، وثبَّت قلبه، وطمأن فؤاده. قال له مرة ثانية:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾

أي: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ﴾ كما أمرناك سابقاً ﴿وَأَخُوكَ﴾ معك كما طلبت منا ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ التي أريتها لك، والتي معك ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تفترا ﴿فِى ذِكْرِى﴾ فهو سلاحكما في مواجهة فرعون.

فرعون؟!! ولماذا فرعون؟!!

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾

نعم، ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ في ادعائه الألوهية، وطغىٰ علىٰ الناس ظلمًا.

ولكن كيف نكلم هذا الطاغية؟

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

أي: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾ ليرجع عن كفره وطغيانه ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ هادئًا، سهلًا، لطيفًا ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ، فيعرف الحق، ويعود إليه ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ الله تعالىٰ، فيتوب عن كفره.

خاف موسىٰ وخاف هارون من هذا الطاغية، ومن الذهاب إليه، ومن التحدث معه، حتىٰ ولو بالكلام اللين. ولذلك:

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

ليس عيبًا أن يخافا، وليس عيبًا أن يُعلنا خوفهما حتىٰ يأخذا للأمر عدته، ويحتاطا بما يناسب الموقف .﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾ من فرعون ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ ويسرع في عقوبتنا فلا نتمكن من تبليغ رسالتنا ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يتكبر فلا يستمع لنا.

ولم يعب ربنا عليهما خوفهما، ولا إعلان خوفهما؛ بل ثبتهما، وكلفهما..

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ الله لهما ﴿لَا تَخَافَآ﴾ من فرعون، حيث ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ برعايتي وعوني لكما، أنا ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يقول وتقولون، و ﴿أَرَىٰ﴾ ما يفعل وتفعلون، وأقدر علىٰ ما لا يقدر ولا تقدرون.

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ اذهبا إليه، وادخلا عليه ﴿فَقُولَآ﴾ له:

أولًا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إليك.

ثانيًا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: اتركهم يذهبون معنا إلىٰ الشام.

ثالثًا: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بالأذى لهم، والتكاليف الشاقة عليهم، حتىٰ نخرج بهم.

رابعًا: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ بعلامة تدل علىٰ صدقنا في رسالتنا من الله لك.

خامسًا: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: ومَن آمن واهتدىٰ، فله السلامة من عذاب الله تعالىٰ.

سادسًا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ من الله ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ الرسل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن الإيمان. فآمن ولا تُعرِض عن ربك وتتولىٰ.

وسمع فرعون ما قالاه، ولم يستجب لمَا طلباه !! ولم يفكر فيما أوحي به إليهما، بل:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

ليس هذا سؤال استفهام؛ ليكون الإيمان.. بل هو سؤال الإنكار، يعني: ألكما رب غيري ؟ فمن هذا؟ وأجاب موسىٰ سريعًا:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

يبدو أن فرعون تورط في السؤال، فقد عرف أن ربهما كما أجابا، يملك ما لا يملك هو، ويقدر علىٰ ما لا يقدر هو؛ إذًا: فليوقفهما عن إتمام الكلام.

وأوقفهما إذ صرفهما إلىٰ موضع آخر..

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾

إذا كنتم تدعوان الآن إليه، فماذا فعلت القرون الأولىٰ، وماذا فُعل معها..؟

وفهم موسىٰ حيلة فرعون، ورغبته في صرفهما عن التحدث عن الله تعالى ووحدانيته، وقدرته. ولذلك أجاب عن هذا السؤال باختصار.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾

أي: ربي هو العالم بها، ولستُ أنا، ولا فائدة من سؤالك.

ثم عاد سريعًا إلىٰ الجواب عن السؤال السابق الذي طرحه فرعون ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]؟ حيث قال متممًا الإجابة:

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾

أي: قال موسىٰ لفرعون: ربي هو ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: ممهدة صالحة للحياة عليها.

﴿و﴾ هو الذي ﴿سَلَكَ﴾ سهل ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقًا، ووسائل للحياة.

﴿و﴾ هو الذي ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَآءً﴾.

ثم قال موسىٰ عليه السلام: يقول ربي: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ أي: بهذا الماء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ مختلفة في الطعم واللون والشكل والرائحة. ثم يقول ربي لكم: ﴿كُلُوا۟﴾ منها ﴿وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ فيها.

ثم يقول ربي لكم أيضًا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من: إعطاء كل شيء خلقه، ثم هدايته إلىٰ وظيفته، ومهمته، وجعل الأرض مهدًا، وتسهيل السبل فيها، وإنزال الماء من السماء، وإخراج النبات به أزواج شتىٰ، والأكل منه، ورعي الأنعام فيه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دالة

علىٰ توحيد الله وقدرته ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: العقول، يفهمونها ويعتبرون بها، ويؤمنون بخالقها وهو الله، فهلَّا آمنت يا فرعون..؟!!

ثم يقول ربي أيضًا:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

يعني: من هذه الأرض ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم من ترابها، وأنتم من أغذيتها ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إذا متم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عند البعث ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ﴾. ثم يكون الحساب، ثم الجزاء بالجنة أو بالنار.. فهلَّا آمنت يافرعون..؟

ويبدو أن فرعون لم يقتنع بهذا المنطق الواضح، ولم يواصل فيه، ويبدو أن موسىٰ عليه السلام عرض عليه تدليلًا علىٰ صدقه آية العصا، وكذلك آية اليد؛ ومع ذلك، لم يؤمن فرعون؛ لأن موسىٰ عليه السلام قال:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

نعم، كذب فرعون وأبى أن يؤمن؛ لأنه خشي من موسىٰ أن يُحدث انقلابًا سياسيًّا، وينتزع منه الحكم، ولذلك اتهمه بالسحر؛ ليقلب الأمر من دعوىٰ دينية إلىٰ قضية سياسية حيث:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾

يعني: هدفك الاستيلاء علىٰ الحكم، بهذا الأسلوب، وهو السحر. الأمر إذًا سهل ميسور علينا..

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾

يعني: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ﴾ مثل سحرك؛ لنثبت لك أنك ساحر، وتريد أن تخرجنا من مصر، وتستولي علىٰ الحكم فيها. فإذا كنت موافقًا علىٰ أن نأتيك بسحر مثله ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ تختاره أنت، ونلتزم به جميعًا ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ ويكون ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مستويًا ظاهرًا للجميع، يرىٰ الكل ما يجري فيه،

لنكشف أمرك علىٰ مرأىٰ ومسمع من الناس جميعًا، فلا ينخدع بك أحد.

ووافق موسىٰ عليه السلام علىٰ الفور.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم: أنا موافق علىٰ ذلك، و ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ الذي تطلبونه هو ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ يوم العيد الذي يتزين له الناس، ويخرجون فيه ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: تجمعون الناس ﴿ضُحًى﴾ في هذا اليوم.

ورغب موسىٰ في ذلك، ليرىٰ الحق أكبرُ عدد من الناس، وأن يكون ضحى؛ ليتحدث الناس بالحق أطول وقت ممكن من اليوم.

ووافق فرعون علىٰ ما قال موسىٰ عليه السلام وأرسل أعوانه وجنوده يجمعون السحرة من أنحاء البلاد، وجمعوا له أمهر السحرة فناً، وأكثرهم عددًا. يقول الحق سبحانه:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾

يعني: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ انصرف من المجلس ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ **أي** : السحرة الذين يكيدون له، ويهزمون موسىٰ .﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ بهم الموعد، زمانًا ومكانًا وأتىٰ موسىٰ الموعد أيضًا.

وتواجه الفريقان، موسىٰ عليه السلام، ومعه أخاه فقط، وهما في معية ربهما، والسحرة جميعًا، ومعهم فرعون بجنوده، وحاشيته، ووعوده البراقة. وبدأ موسىٰ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾

في هذا الظرف العصيب يمارس موسىٰ دعوته، ويبلغ رسالته، ويدعو الأعداء إلىٰ الإيمان. لم يبدأ بإظهار الآيات، بل بدأ بما من أجله كانت الآيات: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ آمنوا بالله ربي وربكم ﴿وَيْلَكُمْ﴾ وهلاكًا لكم إن لم تؤمنوا بأن ربكم الله، وليس فرعون ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فتخيلوا علىٰ الناس بما تفعلون؛ لتخدعوهم ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ يهلككم ﴿بِعَذَابٍ﴾ من عنده.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ على الله، فلا تفتروا عليه سبحانه وتكذبون.

وقد أحدثت هذه الموعظة الوجيزة البليغة القوية تأثيرًا في نفوسهم، وخلخلة في صفوفهم.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾

يعني: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ بعد سماع هذا الكلام بين مصدق ومكذب، ﴿وَ﴾ لخوفهم أن ينكشف أمام الجميع نزاعهم ﴿أَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ وتهامسوا بها، وأخفوها عن الناس. وخشي الحريصون على مرضاة فرعون، والراغبون في القرب منه، أن تتفرق كلمة السحرة وأن يتمزق صفهم، فتكلموا بلسان فرعون .﴿قَالُوٓاْ﴾ لباقي السحرة: لا تهتزوا هكذا، ما ﴿هَٰذَٰنِ﴾ إلَّا ساحران عاديان، ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾، ويستوليا على الحكم في هذه البلاد ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ ويضيع سحركم، وتذهب مكانتكم، وتفقدون مكاسبكم، لأنهم يريدون الاستيلاء على كل هذا.

لذلك ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ من السحر، ولا تختلفوا، ولا يتخلف منكم أحد، ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ﴾ أي اظهروا أمام الناس وأمام موسى ﴿صَفّٗاۚ﴾ واحدًا مترابطًا. وستكون لكم الكلمة العليا ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ وانتصر بسحره على الآخر، وأقبلوا على موسى عليه السلام، أمام هذه الجماهير المحتشدة المترقبة..

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥﴾

أي: ﴿قَالُواْ﴾ لموسى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن﴾ تبدأ أنت و ﴿تُلۡقِيَ﴾ ما معك، أمام الجميع، ﴿وَإِمَّآ أَن﴾ نبدأ نحن فنلقي ما معنا، و ﴿نَّكُونَ﴾ بذلك ﴿أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾.

واختار موسى أن يبدؤوا هم..

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ لهم ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم ما معكم. فألقوا ما معهم من حبال وعصي ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ تهتز اهتزازًا ظاهريًّا، حتىٰ صار ﴿يُخَيَّلُ﴾ إلىٰ موسىٰ ﴿مِن﴾ قوة ﴿سِحْرِهِمْ﴾ أنها حيات ﴿تَسْعَىٰ﴾ تتحرك حقيقة، وإذا كان ذلك لموسىٰ، فما بالك بجموع الناس..؟

ولذلك، ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أحسَّ ﴿فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي: خاف علىٰ الناس، أن يتأثروا بما رأوا أمامهم، فيظلوا علىٰ كفرهم، ولا يؤمنوا. وهنا يكون التثبيت الإلٰهي، والطمأنة الربانية لموسىٰ:

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾

يعني: ﴿قُلْنَا﴾ له ﴿لَا تَخَفْ﴾ علىٰ الناس أن يتأثروا بهذا الذي فعله السحرة، حيث: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ منهم، بما معك من آيات.

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ أمامهم الآن، وستىرىٰ أنها ﴿تَلْقَفْ﴾ تبتلع ﴿مَا صَنَعُوا۟﴾ أمام الناس؛ حيث إنهم ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ﴾ أي: مكر من جنس السحر، يكيدون به.

﴿وَ﴾ علىٰ كل حال، فإنه ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ بسحره.

وألقىٰ موسىٰ عصاه، وفجأة، وأمام الجميع بلعت كل حبالهم وعصيهم، وكانت المفاجأة الثانية: يقول الله تعالىٰ:

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾

خَرَّ ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ ساجدين، لا لفرعون كما كانوا يفعلون، ولكن لله رب العالمين، وأعلنوها صراحة، حتىٰ يعرف الجميع ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

ورأىٰ الناس ما فعل السحرة، وجن جنون فرعون.. !! وخاف أن تؤمن الجماهير كما آمنت السحرة، ونسي فرعون موسىٰ وما فعل، وأقبل ـ شأن الطغاة جميعًا ـ يهدد السحرة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ بسرعة، و ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ بذلك.. منتهىٰ الاستبداد، وحبس الحريات، وكتم الأنفاس، ثم تلفيق الإتهامات ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ معلمكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ دون أن أدري، وهذه خيانة عظمىٰ، دبرتموها معه وتآمرتم بها جميعًا، ثم التهديد والتوعيد ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ اليد اليمنىٰ مع الرجل اليسرىٰ في واحد، واليد اليسرىٰ مع الرجل اليمنىٰ في آخر، وهكذا، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ ليراكم الجميع، وتكونوا عبرة لمن يفكر فيما فعلتم وقلتم، وعندي الزبانية التي تنفذ ذلك فيكم بلا رحمة ولا هوادة.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ إذًا ﴿أَيُّنَآ﴾؟ رب موسىٰ، أو أنا ﴿أَشَدُّ عَذَابًا﴾ لكم ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ ألمًا فيكم.

إنها تهمة هم منها برآء، وتهديد بالعذاب من الطاغية، شديد.. !! فهل فتنوا ورجعوا عن إيمانهم خوفًا من فرعون وبطشه أبدًا.. أبدًا، ولا واحد منهم، بل:

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾

أعلنوا موقفهم صراحة، أمام هذا التهديد، وبكل قوة وثبات. ﴿قَالُوا۟﴾ لفرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ نفضلك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ من الله مع موسىٰ ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدلائل الواضحة علىٰ وحدانية الله وقدرته، ﴿وَ﴾ لن نفضلك أبدًا علىٰ الله تعالىٰ ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ﴾ خلقنا. علىٰ كل حال ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ افعل فينا ما بدا لك ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ يعني: إن ما تفعله فينا هو في الحياة الدنيا، وسيجازينا الله علىٰ صبرنا، ويجازيك علىٰ ما تفعل في الآخرة.

ثم واصلوا كلامهم، موضحين أمام الدنيا سبب إسلامهم. حيث قالوا:

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ من الشرك والمعاصي كلها، ويغفر لنا كذلك ﴿مَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ﴾ تعلمًا، وممارسة، وكيدًا لموسىٰ عليه السلام.

﴿وَٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿خَيْرٌ﴾ منك ثوابًا لمن آمن به وأطاعه، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ وأدوم منك عذابًا لمن كفر به، وعصاه.

ثم واصلوا كلامهم داعين لغيرهم، ومنهم فرعون نفسه للدخول في دين الله، حيث قالوا:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

يعني: إن ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾ يوم القيامة ﴿مُجْرِمًا﴾ مشركًا كافرًا عاصيًا ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ جزاءً عادلًا ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ﴾ سبحانه ﴿مُؤْمِنًا﴾ بالله ورسله ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي ترضي الله، وتصلح البلاد، وتسعد العباد ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾. وهي ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ينعمون فيها، لا يخرجون منها، ولا يموتون بها. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الفضل والثواب العظيم ﴿جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر من الذنوب.

وهكذا انتهى موقف يوم الزينة.. !! آمن السحرة الذين كانوا في أول النهار كفرة، ثم صاروا في آخره بفضل الله، دعاة بررة. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأقام موسىٰ بينهم بعد هذا اليوم مدة من الزمن يدعوهم فيها للإيمان، وقد ألقىٰ الله الرعب في قلب فرعون من موسىٰ، فلم يمسسه بسوء.

وطالت المدة، وفرعون في طغيانه لا يؤمن، والناس في مادياتهم لا يؤمنون، وأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ أن يخرج ببني إسرائيل من مصر، بعد هذه المدة التي عاشوا فيها بين يوسف وموسىٰ عليه السلام. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ قائلين ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ أي: سر ليلًا ﴿بِعِبَادِى﴾ وهم ذرية بني إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام. وذلك في اتجاه البحر للخروج بهم من مصر.

فإذا وصلت إلىٰ هناك ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ﴾ بعصاك ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وستجد طريقًا في البحر ﴿يَبَسًا﴾ يابسًا، للسير عليه. فسر عليه لعبور البحر، وصولًا إلىٰ الشط الآخر ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أن يدركك فرعون ليمسك بكم ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ من البحر غرقًا لكم.

وخرج موسىٰ ومن معه من مصر ليلًا، وضرب البحر بعصاه.. فانفلق البحر !! وسار فيه موسىٰ ومن معه.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

أي: فعلم فرعون بخروجهم ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ ليمسكوا بهم ويعيدوهم، فوجدهم في البحر، فتوهم ـ بغروره ـ وأوهم قومه أن البحر قد انشق له، فنزل خلفهم. ووصل موسىٰ ومن معه، إلىٰ البر الآخر، ونجا ومن معه، وأما فرعون وجنوده ﴿فَغَشِيَهُم﴾ وغطاهم ﴿مِّن﴾ ماء ﴿ٱلْيَمِّ﴾ وهو البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ وغرقوا وهلكوا ﴿و﴾ هكذا ﴿أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ عن الصواب والنجاة، شأن كل طاغية يتبعه قومه ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ إلىٰ الحق والرشاد، كما يدعي ويقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وخرج بنو إسرائيل من مصر، ونجوا من عدوهم فرعون، وأقبل الله بالحديث إليهم يضع لهم منهجًا يسيرون عليه، حيث قال:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

يعني: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ اسمعوا ما يلي:

أولًا: ﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعون بإغراقه كما رأيتم، فاشكروا الله، ولا تعصوه.

ثانيًا: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ لنؤتي موسىٰ التوراة للعمل بها، فاعملوا بها.

ثالثًا: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ وأنتم في الصحراء والتيه؛ إنعامًا منا عليكم، فاشكروا الله، ولا تعصوه.

رابعًا: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ مما أحل الله لكم، ولا تتدخلوا بالتحليل والتحريم من أنفسكم لأنفسكم، فهذا تعدٍّ علىٰ حق الله.

خامسًا: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ أي: فيما رزقناكم به، بالإسراف، أو البطر والطغيان، أو المنع عن المستحقين منه، أو عدم الشكر للمنعم. فاشكروا نعمي، والتزموا بمنهجي، وإلَّا ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ سقط في النار.

ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ رجع إليه ﴿وَءَامَنَ﴾ به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ مرضاة لربه ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: استمر علىٰ الهداية حتىٰ الموت.

عرفنا أن الله عز وجل قال لبني إسرائيل: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ وفهمنا أن ذلك الموعد كان ليؤتي الله موسىٰ عليه السلام التوراة.

وتعجل موسىٰ للقاء الله هذا، رغبة في مرضاته، وسبق قومه لهذا اللقاء، وغاب عنهم، ووقعت لهم فتنة عقيدية خلال هذه الغيبة، وعاتبه ربه قائلًا:

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾

يعني: لمَ سبقت وتركت أمتك؟ لمَ لَمْ تظل معها ترعىٰ شؤونها؟

وأجاب موسىٰ ربه:

﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾

أي: ﴿هُمۡ﴾ خلفي آتون حالًا يا رب. ثم أجاب عن سبب تعجله وسبقه لهم، فقال:

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ يعني: شوقًا إليك، وحرصًا علىٰ رضاك.

وبين الله تبارك وتعالى لموسىٰ نتائج تعجله، فيما حدث لقومه. حيث:

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾

يعني: أي اختبرنا مدى إيمانهم؛ إذْ أضلهم ﴿ٱلسَّامِرِيُّ﴾ فعبدوا العجل، خلال غيبتك عنهم، والسامري: واحد من بني إسرائيل.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾

أي: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعد أن أخذ التوراة ﴿غَضْبَٰنَ﴾ عليهم ﴿أَسِفًا﴾ شديد الحزن لكفرهم. ثم خاطبهم قائلًا: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ لمَ فعلتم ذلك..؟

﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ علىٰ لساني ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾ بكل خير في الدنيا والآخرة، بعد ما أنجاكم من فرعون، ما دمتم مؤمنين به، ملتزمين بشريعته؟ فلمَ أخلفتم وعدكم معي ببقائكم علىٰ توحيد الله ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ بهذا الوعد، وطالت غيبتي عنكم، ونسيتم بسبب ذلك إنعام الله بكم، وعهده معكم؟ فأخلفتم وعدكم معي ببقائكم علىٰ التوحيد.

﴿أَمْ﴾ كان ذلك باختياركم، و ﴿أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيعاقبكم، ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ معكم، بالمحافظة علىٰ إيمانكم، وتوحيد الله تعالىٰ؟

فاعتذروا إليه بما هو أقبح من ذنبهم، حيث:

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ له ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ وعهدك الذي تركتنا عليه ﴿بِمَلْكِنَا﴾ برغبتنا واختيارنا، ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ وجدنا أننا ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا﴾ وذنوبًا بسبب ما أخذناه

﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: القبط في مصر ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: ألقينا هذه الأشياء، وهي الحُليِّ والمصوغات بعيدًا عنا، تخلصًا من أوزارها ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ وهو واجد منا في نفوسنا أنها أوزار، وأنه يجب التخلص منها، ففعلنا.

ثم بين القرآن، كيف أضلهم السامري بعد أن أقنعهم بالتخلص من هذا الذهب، الذي أخذوه بأمر الله لهم. حيث يقول:

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

يعني: فصنع لهم السامري من هذا الذهب ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: مجسدًا، ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ له صوت يسمع، بسبب دقة الصنع. فلما رأوا هذا العجل ﴿فَقَالُوا۟﴾ لبعضهم البعض ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي كنتم تطلبون، حيث إنهم لمَّا خرجوا من البحر، رأوا قوماً يعبدون أصنامًا لهم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ثم قالوا أيضًا ﴿و﴾ هو ﴿إِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ الذي ذهب يبحث عنه. وهكذا كذبوا على أنفسهم وكذب السامري أيضًا ﴿فَنَسِىَ﴾ السامري، ونسوا أيضًا: ربهم سبحانه وتعالى، وضلوا.

ولكن، كيف يعقل ذلك؟ ﴿أَفَلَا﴾ ليست لهم عقول يفهمون بها، وعيون ﴿يَرَوْنَ﴾ بها أنه لا ﴿يَرْجِعُ﴾ ويرد عليهم ﴿قَوْلًا﴾ كما أنه ﴿لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؟

إن هذه الفتنة حدثت لبني إسرائيل على عين هارون عليه السلام، الذي لم يقرهم عليها، ولم يسكت لهم عنها حيث يوضح ربنا موقف هارون بقوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾

أي: بَيَّنَ ﴿لَهُمْ هَٰرُونُ﴾ عليه السلام فساد موقفهم، وسوء فعلهم، وذكّرهم بربهم، ودعاهم إلى طاعة الله، ولم يقصر في ذلك.

ولكنهم.. ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

يعني: أصروا علىٰ موقفهم، وتمسكوا بباطلهم، و ﴿قَالُوا﴾ لهارون: اتركنا، ولا تحاول منعنا من عبادته، فنحن ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ سنظل ﴿عَلَيْهِ﴾ وعلىٰ عبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين، لا يصرفنا عن ذلك شيء ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فننظر معه في الأمر.

وغُلِب هارون معهم علىٰ أمره، ورجع موسىٰ إليهم من لقاء ربه، وعرف تفاصيل الموضوع، وأخذ في السيطرة علىٰ موقف هذه الجماعة المارقة، وعلاج هذه الفتنة الحارقة، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ من يده؛ لشدة انفعاله ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ثم..

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ﴾ ما الذي ﴿مَنَعَكَ﴾ حينما ﴿رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ طريق الهداية وكفروا بربهم وعبدوا العجل أن تلحق بي، وتأتيني في الجبل وتخبرني بما فعلوا، أو تكون حازمًا معهم وشديدًا في منعهم من ضلالهم، كما كنت أفعل أنا لو كنت بينهم.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ يا هارون، الذي قلته لك سابقًا:

﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وأجاب هارون:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ هارون لأخيه: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ أي: يا أخي ﴿لَا تَأْخُذْ﴾ وتمسك ﴿بِلِحْيَتِى﴾ هكذا، ﴿وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ غضبًا مني، علىٰ ما فعلوه، ولم أستطع منعهم منه، حيث: ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ إن ذهبت إليك، وجاء معي بالضرورة بعض مَن لم يعبد العجل، وبقي علىٰ التوحيد ﴿أَن تَقُولَ﴾ لي ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ففريق معك وفريق مع السامري، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ أي: تنتظر بهم مجتمعين، وأبدي في هذا الموضوع ﴿قَوْلِى﴾ وتصرفي.

وهكذا انتهت مواجهة موسىٰ مع أخيه، وعتابه له، ومعرفته عذر أخيه، ثم توجه إلىٰ السامري صاحب الفتنة..

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ له: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ ما شأنك، وما هذا الذي فعلت ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؟ ولمَ فعلته؟

ورد السامري علىٰ موسىٰ عليه السلام:

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ السامري:

أولًا: ﴿بَصُرْتُ﴾ أي: علمت ﴿بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ جميعًا، من أن الذي أنتم عليه ليس بحق.

ثانيًا: أخذت ﴿قَبْضَةً﴾ من أثرك وسنتك ودينك كنت أتبعها ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ وألقيتها بعيدًا عن فكري، وتركتها بعيدًا عن عملي ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ وزينت ﴿لِى نَفْسِى﴾ وأقنعتني بهذا. ولم يكن هذا: اعترافًا بالخطأ، أو اعتذارًا عنه، أو توبة منه، بل كان تبريرًا له، وإصرارًا عليه، ولذلك:

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام للسامري:

أولًا: ﴿فَٱذْهَبْ﴾ بعيدًا عنا، مطرودًا منا، وحرَّم موسىٰ علىٰ القوم معاملته، أو مخالطته، أو مساكنته.. إلخ.

ثانيًا: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لك طول حياتك أن لا تقرب أحدًا ولا يقربك أحد، فإذا ما اقترب منك أحد، قلت له: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ لا تمسسني، حيث إنه إذا مسك أصبتما بالحمىٰ معًا.

ثالثًا: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ لعذابك علىٰ ما فعلت، ولم تتب منه ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ فهو واقع بك لا محالة.

رابعًا: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ مقيمًا علىٰ عبادته، كيف أنه لا يدفع الضر عن نفسه ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ﴾ البحر ﴿نَسْفًا﴾. وتفكر، وليتفكر الجميع هل هذا يصح إلهًا؟ وهكذا، انتهت مواجهة موسىٰ عليه السلام مع السامري، وطرده وتهديده له.

ثم توجه إلىٰ بني إسرائيل الذين وقعوا في الفتنة، وقال لهم:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

يعني: إلٰهكم ليس هذا العجل، كما صور لكم السامري، ولكن إلَهَكُمْ، هو ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ خالق الكون، ومدبر أمره، ﴿وَسِعَ﴾ ربنا ﴿كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

وهكذا أيضًا، انتهت قصة موسىٰ عليه السلام، كما عرضتها سورة طه.

ويعود الحديث إلىٰ النبي ﷺ، حيث يقول له ربنا جل وعلا:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما قصصنا عليك يا محمد هذه القصة ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أيضًا ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾ من الأمم، والأنبياء.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو القرآن. **وهذا القرآن:**

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

يعني: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ وجار به، أو لم يؤمن به، أو أهمله عمدًا، ولم يعمل به ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ﴾ بسبب ذلك في ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ حملًا ثقيلًا من الذنب والإثم، والعذاب عليه.

كما يكون ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ أي: في عذاب هذا الإثم ﴿و﴾ حقًّا حقًّا ﴿سَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾.

هذا وكأن سائلًا سأل: ما يوم القيامة هذا؟ فكان الجواب بهذه الأوصاف:

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾

يعني: ﴿يَوۡمَ﴾ القيامة هذا له عدة أوصاف منها:

الوصف الأول: أنه ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ النفخة الثانية فتقوم الخلائق من قبورها.

الوصف الثاني: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الكافرين الطغاة فيه ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تكون عيونهم ﴿زُرۡقٗا﴾ووجوههم سودًا.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يتهامسون ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ في حسرة قائلين لبعضهم البعض: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ وعشتم وتمتعتم ﴿إِلَّا عَشۡرٗا﴾ من الليالي بأيامها فقط.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في ذلك، ويتخبطون فيه من هول ما يرون، ونسيان ما كانوا يتمتعون فيه، ويكفرون بسببه.

﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ أي: أدقهم تخمينًا ما ﴿لَبِثۡتُمۡ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا يَوۡمٗا﴾.

وليس الأمر بالطبع كما قالوا، وإنما قالوا ما قالوا من شدة ما يرون من الأهوال والعذاب.

هذا، وكأن سائلًا من هؤلاء المجرمين ـ لمَّا سمع هذا الكلام عن يوم القيامة ـ سأل استهزاءً عن الجبال، يقول ربنا حكاية ذلك، وجوابها، ومكملًا لأوصاف يوم القيامة:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾

أي: عندما ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ أين تكون يوم القيامة؟ ﴿فَقُلۡ﴾ لهم: وهذا هو

الوصف الثالث: أن الجبال ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي﴾ يوم القيامة ﴿نَسْفًا﴾ أي: يفتتها فتصير كالرمل، ثم يُطيِّرها بالرياح.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيترك الأرض التي كانت عليها الجبال ﴿قَاعًا﴾ مستويًا صلبًا ﴿صَفْصَفًا﴾ ملساء ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ لا ارتفاعًا ولا انخفاضًا، ولا شيء بالمرة نهائيًّا.

هذا وكأن سائلًا أيضًا يسأل: وما حال الناس في هذا اليوم؟ فيكون الجواب، وذكر باقي الأوصاف في قوله تعالىٰ:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

يعني: الوصف الرابع: أنه في هذا اليوم يقوم الناس من القبور، و ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ لهم إلىٰ المحشر؛ حيث العرض علىٰ الرحمٰن ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا تباطؤ ولا انحراف لاتباعهم هذا، ولا لهم عن الاستجابة له إلَّا استجابة كاملة.

الوصف الخامس: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ في هذا اليوم ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ من هيبته وخشيته ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ منهم ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ في الكلام، ووطئًا للأقدام.

هذا، وكأن سائلًا يسأل كذلك: هل من شفاعة تنفع في هذا اليوم؟ ويكون الجواب، وذكر باقي الأوصاف في قوله تعالىٰ:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾

يعني: الوصف السادس : في يومها ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ من أحد لأحد ﴿إِلَّا﴾ شفاعة ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أن يَشْفَع، أو يُشْفع له ﴿وَرَضِيَ﴾ الرحمٰن ﴿لَهُۥ قَوْلًا﴾ بأن يكون هذا وذاك مسلمًا، آمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا.

الوصف السابع: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

أي: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة، وما ينتظرهم

فيها، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا، وما عملوه فيها، وهم ﴿لَا يُحِيطُونَ بِهِۦ﴾ أي: هذا ولا ذاك ﴿عِلْمًا﴾ إنما العالم بالجميع والمحيط بالكل هو الله جل شأنه.

الوصف الثامن: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾

يعني: في ذلك اليوم تعنو الوجوه، **أي** : وجوه المكلفين، وتُذَلّ ﴿لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ﴾ حيث يصير الملك والقهر لله تعالىٰ وحده.

في ذلك اليوم ﴿خَابَ﴾ وخسر وحرم الثواب كل ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وظل علىٰ كفره حتىٰ مات، ومن أكل الحقوق مادية أو معنوية، ولم يردها حتىٰ مات.

ملحوظة هامة: روىٰ أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ: **«اطلبوا اسم الله الأعظم في هذه السور الثلاث: البقرة، وآل عمران، وطه»** .قال الراوي: فوجدنا المشترك بين السور الثلاث: قوله تعالىٰ: ﴿لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ﴾.

لمَّا شرح الله سبحانه وتعالىٰ أحوال يوم القيامة، وعدد بعض أوصافه، ختم الكلام في هذا الموضوع ببيان أحوال المؤمنين السعداء ـ جعلنا الله وإياكم منهم ـ فقال عز وجل:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

أي: بشرىٰ للذين يعملون ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهم علىٰ الإيمان: أنهم لا يخافون ﴿ظُلْمًا﴾ يقع عليهم، سواء كان بعقاب دون ذنب، أو بحرمان ثواب يستحقونه ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ أي: ولا نقصًا من ثوابهم.

وبعد أن انتهت قصة موسىٰ عليه السلام في هذه السورة، قال تعالىٰ لمحمد ﷺ:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩].. ثم كان الحديث علىٰ يوم القيامة، ثم يعود الحديث مرة أخرىٰ مع محمد ﷺ، حيث يقول له المولىٰ عز وجل:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

يعني: ﴿وَ﴾ ما قصصناه عليك ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي سبق ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ لتفهمه العرب، ويعرفوا أوامره ونواهيه، ويحسنوا العمل به، ويجيدوا نقل هديه إلىٰ الدنيا كلها.

﴿وَصَرَّفْنَا﴾ كررنا ﴿فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ علىٰ مخالفة أحكامه، والتحذير من إهمالها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر، والمعاصي، ويبتعدون عنها.

﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ القرآن ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعتبرون بمصارع مَن سبق من المعاندين.

وفي هذا ما فيه من تعظيم القرآن الكريم، والدعوة للاعتناء به.

ولمَّا عظم ربنا تبارك وتعالىٰ كلامه، أتبع ذلك بتعظيم نفسه، فقال جل جلاله:

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

أي: ﴿فَتَعَـٰلَى﴾ فتنزه وتقدس وتعاظم ﴿ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ﴾ النافذ أمره ونهيه، الذي يرجى وعده ويخشى وعيده، ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته وألوهيته، وبعد هذا التعظيم يعلّم الله نبيه عليه الصلاة والسلام كيفية تلقي القرآن، حيث يقول له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ قراءة، لشدة حرصك ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من جبريل ﴿وَحْيُهُۥ﴾ بل أنصت ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ به وبمعانيه، وبهديه فهمًا.

يقول الإمام النسفي رَحِمَهُ اللَّهُ: ما أُمر رسول الله ﷺ بطلب الزيادة في شيء، إلَّا في طلب العلم.. فلنتنبه إلىٰ أنفسنا.. !!

هذا، ولمَّا قال ربنا جل وعلا لحبيبه ﷺ، ومعلمًا لأمته: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ ذكر له قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي عهد الله إليه، وحذر من العدو، فنسي !! تنبيهًا علىٰ ضعف القوة البشرية عن التحفظ من النسيان، والحذر من الأعداء ولذلك، فالمرء دائمًا محتاج إلىٰ الاستعانة بربه، لتحصيل العلم، وتجنب السهو والنسيان، والحذر الدائم من مكر الأعداء، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

هذه هي المرة السادسة، التي تذكر فيها قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ذكرت قبل ذلك في سور: البقرة [٣١]، والأعراف [٢٦]، والحجر [٢٨]، والإسراء [٧٠]، والكهف [٥٠]،

وفي كل مرة تساق بأسلوب جديد، ولغرض جديد، يتناسب مع موضعها، وهذا لون من إعجاز القرآن بديع.

وفي هذه الآية، يُذكر الله بعهده إلىٰ أبينا آدم بعدم الأكل من شجرة عيّنها له في الجنة، ولكن آدم عليه السلام، بحكم تكوينه البشري ﴿فَنَسِيَ﴾ هذا العهد، وأكل من الشجرة بخداع الشيطان له، يقول المولىٰ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ حزمًا وصبرًا علىٰ ما نهيناه عنه، ولذلك تحتاج التكاليف إلىٰ صبر، وقوة.

وهذه هي القصة ـ كما قرأناها في الآية الكريمة ـ بإيجاز، وتفصيلها فيما يلي:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾

أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ طاعة لنا ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ كلهم ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الذي كان معهم في ذلك الوقت، وشمله الأمر، فإنه ﴿أَبَىٰ﴾ رفض، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وحسد إبليس آدم، وبدأت العداوة، وعرّفنا آدم ذلك:

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

يعني: حذرنا آدم، وقلنا له: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ اللعين إبليس ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ فانتبه إليه، واحذر عداوته ﴿فَلَا﴾ تطعه، ولا تتبع وسوسته حتىٰ لا ﴿يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ عن طريقها ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ وحدك، بعد خروجكما منها، حيث تكون المسؤول والعائل والمكلف بكل شيء تحتاجانه.

يا آدم ﴿إِنَّ لَكَ﴾ مني، لو لم تطع إبليس، وتلتزم بما أمرتك به ونهيتك عنه ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ أي: في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾ من العطش ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ من حر الشمس، حيث لا شمس في الجنة.

وبهذا نبهناه، وحذرناه، ووعدناه..

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

وهكذا، تقابل وعد الله، ووسوسة الشيطان في عقل آدم؛ وعد الله آدم: بالخلود في الجنة، والسعادة الأبدية، ووسوس الشيطان لآدم: بالخلود في الجنة، ودوام الملك فيها والأمر واضح، والفرق بيِّن، بين مَن يملك التنفيذ، ومَن لا يملك.

ومع ذلك، لا راد لقضاء الله..

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾

نعم، نسيا وعد الله، وُفتنا بوسوسة الشيطان.

﴿فَأَكَلَا﴾ أي: آدم وحواء ﴿مِنْهَا﴾ أي: هذه الشجرة، وهنا: سقطت عنهما حلل الجنة ﴿فَبَدَتْ﴾ فظهرت ﴿لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ عوراتهما ﴿وَطَفِقَا﴾ وصارا على الفور ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ يلصقان على عوراتهما ﴿مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ رغبة في الستر ﴿و﴾ هكذا ﴿عَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ بمخالفة أمره ونهيه ﴿فَغَوَىٰ﴾ وضل عن طريق الرشاد.

لمَّا عصى آدم ربه: ظهرت عورته، وانكشفت سوأته مما يدل على أن الستر يصاحب الطاعة، وأن كشف العورات وهتك المستور يصاحب المعصية.

اللهم استرنا بطاعتك، ولا تفضحنا بمعصيتك يا رب العالمين.

ولم يترك ربنا عز وجل آدم يغرق في خطيئته، ويسبح في بحار المعصية، حيث قال:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾ تعطف المولى على آدم، و ﴿اجْتَبَاهُ﴾ قربه إليه، وهداه إلى التوبة، فتاب إلى الله، وندم على ما كان ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِ﴾ وقبل منه توبته ﴿وَهَدَىٰ﴾ الله آدم ـ كذلك ـ إلى مداومة التوبة، كلما أخطأ هو أو بنوه.

ومع هذه التوبة من آدم، ومع قبولها من الله، فإن الأمر لم يمر دون عقوبة، إذْ إن الله تعالى:

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ لآدم وذريته، أو لآدم وذريته من جهة، ولإبليس وذريته من جهة أخرىٰ ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا﴾ أي: من الجنة ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾.

وهذا تنبيه واضح علىٰ عداوة إبليس وذريته، لآدم عليه السلام وذريته، وتحذير أكيد شفوق منه، ثم يقول ربنا لآدم وذريته ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ عن طريق رسلي وكتبي فاتبعوه، ولا تعرضوا عنه، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ هذا ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ في الآخرة، ﴿و﴾ أما ﴿مَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ وهداي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ في الدنيا: من الهموم، والقلق، والخوف، وفي القبر: من العذاب ﴿و﴾ فوق ذلك ﴿نَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ يبعث مبصرًا، ثم يحشر أعمىٰ.

هذا الكافر الأعمىٰ في يوم الحشر يتساءل:

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥﴾

يعني: ﴿لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ﴾ يا رب ﴿أَعۡمَىٰ﴾ الآن ﴿وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ في الدنيا وعند البعث؟ ويكون الجواب:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ المولى له: الأمر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لأنك ﴿أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة علىٰ وحدانيتنا، ووجوب طاعتنا، مع الرسل وفي الكتب، قبل ذلك ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾ أي: تركتها، عمدًا أو إهمالًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل نسيانك وإهمالك لها قبل ذلك: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في الحشر ﴿تُنسَىٰ﴾ أعمى إهمالًا لك، وانتقامًا منك، وتترك في النار.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل جزائنا لمن أعرض عن ذكري ﴿نَجۡزِي﴾ كل ﴿مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ في الطغيان والمعصية ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾ إلىٰ يوم القيامة هذا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ له ﴿أَشَدُّ﴾ من هذا ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ ألمًا وخزيًا.

ولمَّا وضَّح ربنا بعض أحوال مَن أعرض عن ذكره، وذلك في يوم القيامة، لفت أنظارهم إلىٰ ما حدث لأمثالهم في الدنيا علَّهم يهتدون، فيؤمنون، حيث قال جل وعلا:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ غفل هؤلاء المعرضون عن الاهتداء بآياتي ورسلي ﴿فَلَمْ يَهْدِ﴾ يتبين ﴿لَهُمْ﴾ فيعرفوا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي: أهلكنا قبلهم كثيرًا ﴿مِّنَ﴾ أهل ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ الذين عصوا ربهم وكفروا به، وعاندوا، والذين كانوا ﴿يَمْشُونَ﴾ ويعيشون ﴿فِى﴾ نفس ﴿مَسَٰكِنِهِمْ﴾ هذه.

حقًّا، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ واضحات ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ العقول، لو كانوا يفهمون، فيعتبرون، فيؤمنون!! وأيضًا إن في ذلك لآيات لكفار مكة، لو كانوا يعقلون!!

ثم يقول لمحمد ﷺ:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

يعني: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب عن كفار مكة ﴿لَكَانَ﴾ إهلاكهم ﴿لِزَامًا﴾ أي: لازمًا لهم في الدنيا، ولولا ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ كذلك لكل أمة بهلاكها، لكان العذاب والاستئصال لهم في الدنيا، وهذه سنتنا.

وما دام الأمر كذلك:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

تحتوي هذه الآية والآيتان بعدها مجموعة من الوصايا والأوامر للنبي ﷺ، وقت أن كان يعاني من عناد قومه:

الوصية الأولى: الأمر بالصبر ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لك عنادًا، وتجبرًا وتكبرًا، وكان هذا قبل نزول الأمر بقتالهم.

الوصية الثانية: الأمر بالصلاة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صل لربك ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ وهي صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وهي صلاة العصر، ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: صل

المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: ساعة الزوال، وهي صلاة الظهر.

وذلك الأمر بالصبر، والأمر بالصلاة ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ بما يحدثه الصبر والصلاة، أو لعلك ترضىٰ بما نعطيه لك من الثواب عليهما.

ثم يقول سبحانه:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾

هذه هي الوصية الثالثة: وفيها النهي عن التطلع إلىٰ متاع الحياة الدنيا، بما يؤدي إلىٰ الافتتان بها ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وبهجتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ بطغيانهم، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ في الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ مما أوتوه في الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أدوم نفعًا واستمتاعًا به.

ثم يقول الله تعالىٰ:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

وفي هذه الآية **نجد الوصية الرابعة:** وهي متابعة الأهل في طاعة الله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ لتنقذهم من عذاب الله ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أنت ﴿عَلَيْهَا﴾ أداءً، ومداومة، ومتابعة لأهلك.

الوصية الخامسة: لا تجعل قضية الرزق تشغلك عن حسن عبادة الله، فنحن ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ لنفسك، ولا لغيرك، بل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ونرزق غيرك.

الوصية السادسة: عليك بتقوىٰ الله ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ والنتيجة الحسنة، وهي الجنة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لأهل التقوىٰ في الدنيا.

ويلاحظ: أن هذه الوصايا للنبي ﷺ، موجهة كذلك لأمته.

وفي نهاية السورة، يذكر الله اقتراحًا من اقتراحات الكافرين ويرد عليه، يقول تعالىٰ:

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾

يعني: ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: هؤلاء الكفار علىٰ النبي ﷺ ﴿لَوۡلَا﴾ هلّا ﴿يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ دالة علىٰ صحة نبوته لنؤمن به !! ويرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم﴾ بآيات علىٰ ما يريدون، ومنها وأعلاها القرآن ﴿بَيِّنَةُ﴾ أي: بيان ﴿مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ من إهلاك الأمم السابقة، لتكذيبها رسلهم.

هؤلاء يستحقون الهلاك، ولم نهلكهم إهمالًا، بل إمهالًا.

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾

يعني: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: من قبل مجيء محمد ﷺ إليهم رسولًا ﴿لَقَالُواْ﴾ يوم القيامة ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا﴾ يا رب ﴿رَسُولٗا﴾ يدعونا للإيمان، ومعه آياتك الدالة علىٰ صدقه ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ هذا الرسول ونصدِّق ﴿ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ في هذا اليوم، كما هو الحال الآن!!

يا محمد، هؤلاء معاندون..

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾

أي: ﴿قُلۡ﴾ لهم ﴿كُلّٞ﴾ منا ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾ ينتظر ما يحدث للآخر ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ بنا ما شئتم ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ في النهاية ﴿مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ الطريق المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ من الضلالة نحن، أو أنتم.. !!

* * *